د٠ كوكب عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة الله والطريق اليها

تمهيد : المعرفة Knowledge هى ثمرة التقابل والاتصال بين ذات مدركة وموضوع مدُرك ٠ وتتميز عن باقى معطيات الشعور من حيث أنها تقوم فى آن واحد على التقابل والاتحاد بين هذين الطرفين ٠ (١)

هذا عن المعرفة عموماً أما معرفة الله فهى صفة من عرف الحق سبحانه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ٠ ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله تعالى بجميل إقباله ٠ وصدق الله تعالى فى جميع أحواله ، وانقطع عن هواجس نفسه ، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره فإذا صار عن الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه بريا ومن المماكنات والملاحظات نقيا ٠ ودام فى السر مع الله تعالى بمناجاته ٠ وحق فى كل لحظة إليه رجوعه وصار محادثاً (أى ملهما) من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره يسمى عند ذلك " عارفا " وتسمى حالته " معرفة ")) (٢) ٠

وقد أهتم الفلاسفة بالبحث فى نظرية المعرفة فبحثوا إمكانية قيام المعرفة وكان موقف الشكاك الذين أنكروا إمكانية الوصول إلى معرفة يقينية وموقف أصحاب الشك المنهجى الذين انتهوا من الشك إلى اليقين وتناولوا المعرفة من حيث التفرقة بين معرفة أولية سابقة على التجربة ومعرفة بعدية أو مكتسبة من التجربة ٠ كما عرضوا للبحث فى طبيعة المعرفة الانسانية وعما إذا كانت الاشياء المدركة ذات طبيعة مستقلة عن العقل الذى يقوم بإدراكها أم أن تلك المدركات الحسية مجرد

---

١ - ورد هذا التعريف بالمعجم الفلسفى - مجمع اللغة العربية ٠ تقديم د٠ إبراهيم مدكور ص ١٨٦ ، ١٨٧ - ولمعرفة المزيد عن تعريفات لفظ معرفة ٠ أنظر٠ محمد إسماعيل إبراهيم الالفاظ والاعلام القرآنية ٠ - دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٣٨٨هـ ط ٢ ص ٧١ - وانظر أيضا مختار الصحاح ص ٤٢٦ مادة " عرف "

٢ - الامام القشيرى : الرسالة القشيرية ٠ تحقيق د ٠ عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف ط ٢ ص ٦٠١ ٠

أفكار في العقل ؟وهل هذه المعرفة العقلية مطابقة لحقائق الاشياء المدركة كما هي عليه في الواقع الحسي ؟ وناقشوا هذه القضايا (١) قديما وحديثا واختلفت في ذلك أرائهم • كما بحثوا في موضوعات المعرفة ومناهجها وأدواتها والغرض منها•

وفي عصرنا الحالي قد أنكر الوضعيون البحث فيما وراء الواقع ورأوا إلا موجود إلاالمحسوس وبذلك أنكروا الميتافيزيقا وأهملوا البحث فيها • واعتبروا البحث في الغيبيات تفكير غير علميلأن التفكير العلمي يقوم على المنهج العلمي الذي قوامه الملاحظة والتجربة الحسية ولايعترف بالغيبيات (٢)•

---

١ - من المراجع الهامة في المعرفة :

- Montague .WP. Ways of knowing. 1925
- Hobhous .L.T. The Theory of Knowledge .
- Woozley.A.D. Thoery of Knowledg (An Introduction 1949)
- EWing,A.C. Fundamental Question of philosophy.
- Ledger Wood, Analysis of Knowledge, 1940
- Ladd, G.T. Knowledge life and Reality .
- Ladd .G.T. Philosophy of Knowledge . 1897 .

٢ - يرى " آير " زعيم الوضعية المنطقية في انجلترا استبعاد الميتافيزيقا والعلوم المعيارية من مجال البحث العلمي لانه يصعب التحقق من صوابها علميا أو حسيا فالقضايا التي يستحيل التثبت من صدقها أوكذبها في حدود الخبرة الحسية تكون غير ذات معنى ولذلك كان مبدأ التحقق مقياسا تحدد به معاني العبارات ودلالاتها • وغايته ربط القضايا بالواقع لاختبار معناها ولذلك استبعدت قضايا الميتافيزيقا من مجال البحث العلمي واعتبرت الوضعية المعاصرة الميتافيزيقا كلام فارغ nonsense لايحمل معنى أي لايمكن التثبت من صوابه أوخطئه في حدود الخبرة الحية ويقول "بارنز " استاذ الفلسفة الحالي بجامعة درهام : أن مبدأ التحقق عند اتباع الوضعية المنطقية هو الذي يقول : (ان القضية التي يمكن التحقق منها بالرجوع إلى الواقع) هي وحدها ذات معنى)

ويقول " بارنز " : ان مبدأ التحقق عند أتباع الوضعية المنطقية أنفسهم تحميل حاصل Tautology وبهذا المعنى لايصلح هذا المبدأ أن يكون مقياسا لاختبار القضايا • إذ يجوز أن تكون القضايا ذات معنى لايتيسر التثبت من صوابه بالخبرة الحسية وبهذا ينهار أساس الوضعية المنطقية كما ذهب الفيلسوف التحليلي " برتراند " " وكارل بوبر" إلى ان الوضعيين المنطقيين يقولون " ان الجملة إن لم تكن قضية تحليلية ولاتركيبية كانت خالية من المعنى وان قولهم هذا لايدخل في أحد فرعي هذا التصنيف فلاهو قضية تحليلية ولاتركيبية ومن ثم يكون فارغا من المعنى " - أرجع الى كتاب د• توفيق الطويل اسس الفلسفة ٢٨٣ ، ٢٨٤ ولمعرفة المزيد من موقف الوضعيين من الميتافيزيقا أنظر ص ٢٧٠ : ص ٢٩٠ نفس المرجع •

أما المنهج الاسلامى فى المعرفة فهو منهج ثرى ويكمن ثراؤه فى أنه منهج شامل متكامل جمع بين المعرفة الحسية والعقلية القلبية والخبر المنزل موضحاً دور كل منها فى المعرفة وأنها جميعا متآزرة تعمل للوصول الى الحقيقة سواء فيما يتعلق بعالم الشهادة أو عالم الغيب وأنه لاغنى للانسان عن واحدة منها نظراً لتعدد موضوعات المعرفة واختلافها .

والخبر المنزل يطلعنا على أمور فى عالم الغيب يصعب على الانسان بل ويستحيل عليه أحياناً معرفتها بوسائل المعرفة التى أتاحها الله له من حس وعقل وقلب . وهذا ماسيتضح فى موضعه بعد .

ولما كان موضوع المعرفة فى هذا البحث هو الله سبحانه وتعالى فإنه لايخفى علينا أن الحس والعقل قادران على تبين آثار الله حيث ينقل الحس صور المحسوس إلى العقل ثم يقوم العقل بالاستدلال منها على وجود الخالق . فالحس والعقل هما مصدرا معرفة الموجودات فى عالم الشهادة .

أما معرفة ذات الله واسمائه وصفاته فإنها تكون بالقلب والخبر المنزل من السماء . حيث أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن أسمائه الحسنى وصفاته وعن الأمور الغيبية المتعلقة بالعالم الآخر ، وعن العبادات التى نتقرب بها اليه عن طريق ترشيد النص المنزل.

وقد أدرك المفكرون ضرورة تعدد أدوات وطرق المعرفة كالكندى فى " الفلسفة الاولى " حينما يصرح بأن المعرفة المتمثلة فى العقل مستمدة من الادراك الحسى فيقول : " وإذ الحواس واجدة الاشخاص فكل متمثل فى النفس من المحسوسات فهو للقوة المستعملة للحواس "[1] ويقول أيضا : " فإن بها تين السبيلين (يعنى سبيل الحس وسبيل العقل) كان الحق من وجهة سهلاً ومن جهة عسيراً لأن من طلب تمثل

---

١ - الكندى - رسالة فى الفلسفة الاولى من رسائل الكندى الفلسفية تحقيق الاستاذ الدكتور محمد عبدالهادى أبوريدة ط ١ ص ١٠٧ طبع سنة ١٩٥٠ م .

المعقول ليجده بذلك (أى بالحس) مع وضوح فى العقل • عمى عنه كخفاش عين الوطواط عن نيل الاشخاص البينة الواضحة لنا فى شعاع الشمس " [١] وقد اعترف الكندى بالقلب وكذا بالنص المنزل ودورهما فى المعرفة •

كما نجد عند ابن سينا نظرية متكاملة فى المعرفة جمع فيها بين الحس والعقل والقلب والنص المنزل وهو لم يضع المصادر الاربعة للمعرفة فى مرتبة واحدة فقد جعلها تتدرج فى الترقى من الحس إلى العقل إلى الذوق أما الخبر المنزل فهو كلام الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يقول ابن سينا : " والمعانى الكلية إما أن تحصل من النفس بتصفح الجزئيات أو بفيض يتصل بها علوى عن طريق الالهام • لكن المعانى الكلية الاولية لو كانت مستفادة باستقراء الجزئيات لما كانت بها ثقة بل ما كانت كلية بالحقيقة ومن البين ان هذه المعانى هى غاية المحة وهى علة الثقة لغيرها فإذن حصولها بفيض علوى " [٢] •

وقد أدرك بعض فلاسفة الغرب المحدثون ضرورة تعدد مصادر المعرفة مثل " كانت kant " الذى ذهب إلى ان الحواس تقدم للعقل إدراكات حسية متفرقة للاشياء الموجودة فى العالم الخارجى وهى تمثل مادة المعرفة ، ثم يقوم العقل بالربط بين هذه الادراكات الاتية عن طريق الحس وإيجاد علاقات بينها حتى يصل الى المعرفة فتلك الادراكات الحسية تصب فى مقولات أو قوالب عقلية كمقولة الجوهر أو معقولة السببية وغيرها وهى تمثل صورة المعرفة • فيضفى عليها العقل معانى وعلاقات لتصير معرفة متكاملة تكون نتاج تعاون الحس والعقل [٣] •

---

١ - المرجع السابق ص ١١٠

٢ - رسالة السعادة والحج العشرة على ان النفس الانسانية جوهر طأولى ص١٣ ولمعرفة المزيد عن نظرية المعرفة عند ابن سينا ينظر كتاب د • فيصل بدر عون " نظرية المعرفة عند ابن سينا " ملتزم بالطبع مكتبة سعد رأفت جامعة عين شمس •

3 - Immanuel Kant: Critique of pure Reasion: Translat by: Norman Kemp Smith , 1953 .

وبذلك جعل كانت العقل مباطن للمادة أو التجربة الحسية .[١]

كما دعا " بيكون " إلى ضرورة تعاون الحس والعقل فى الوصول إلى المعرفة فمنف الفلاسفة إلى أصحاب النزعة التجريبية " " ودعاة التيقن " فالأولون يستندون إلى مجرد الملاحظة الطارئة كالنملة تقنع بأن تكدس مواد غذائها لتستهلكها فيما بعد . أما الفيلسوف العقلى صاحب اليقين فيشبه العنكبوت الذى ينزل نسيجه من مادته ؛ فيثير الاعجاب بدقة صنعه . ومهارته ، ولكن النسيج واه تعوزه المتانة ولايتقفع به أحد .

وبين النملة والعنكبوت تقف النحلة . الفيلسوف الحق - تجمع مادتها من الازهار والنباتين وبفنها الذى تتميز به تعمل وتكد حتى تتمثل المادة ، وتحيلها رحيقاً . والفلسفة الصحيحة عند بيكون أشبه ماتكون بعمل النحلة .[٢]

وسنتبين معاً من خلال هذا البحث المتواضع أن معرفة الله تعتمد على مصادر متعددة . وسأبدأ بالحس كمصدر للمعرفة ثم أوضح دور الحس فى معرفة آثار الله كما جاء فى القرآن الكريم ثم ابين حدود المعرفة الحسية وبعد ذلك سأعرض للعقل كمصدر للمعرفة ودوره فى الاستدلال على وجود الله من خلال الايات القرآنية مع ابراز ماجاء فى القرآن من تكليف للانسان بالنظر العقلى فى الكون موضحه أن الحس والعقل لهما حدود يعجزان عن تخطيها أو تجاوزها وأن معرفة ذات الله لا تكون الا بالقلب الذى تهيأ لتقبل المعرفة الذوقية اللدنية التى لايتطرق اليها أدنى شك ومن المهم تبين أهمية النصوص المنزلة فى معرفة الله تعالى : معرفة أسمائه الحسنى وصفاته ومعرفة الامور الغيبية التى تخفى على الحس والعقل ولايكون السبيل إلى تبينها إلا بالقلب والخبر المنزل من عند الله ولاسبيل إلى تصديقها الا بالقلب المؤمن بقدرة الله تعالى أما غير المؤمن فلنا معه وقفة فى نهاية البحث لمناقشة قضية رفضه لما هو خارج نطاق الحس والعقل وبعده عن الروحانيات Pneumatology واعتقاده بان الايمان بها وهم والبحث فيها لاجدوى منه وسنبدأ أولا بالحس كمصدر للمعرفة .

١ - تعرض مذهب كانت فى إخضاع التجربة للعقل بشكل مطلق للنقد من جانب المفكرين . أرجع الى أ.د يحيى هويدى " مقدمة فى الفلسفة العامة " ص ١١٥ ، ١١٦ ط الرابعة .

٢ - أرجع الى أ.د . توفيق الطويل . " اسس الفلسفة " ص ٢٠١ .

أولا : الحس كمصدر للمعرفة : ـ

المعرفة الحسية هي التي تعتمد أساسا على المصادر الحسية المعروفة من لمس وشم وسمع وبصر وتذوق • وهناك من الفلاسفة أصحاب المذهب التجريبي Empiricism من غالى في تقدير قيمة الحس كمصدر للمعرفة وعلى رأس هؤلاء " بيكون " " وهوبز " " ولوك " في القرن السابع عشر و " باركلي " و " هيوم " في القرن الثامن عشر و " بنتام " و " جيمس مل " و " جون اسيورت مل " من التفعيين في القرن التاسع عشر• ثم " اسبنسر" و " ليسلي سيفين " من أنظار نظرية التطور •

وفي القرن العشرين ظهر أصحاب التجريبية المنطقية العلمية أمثال " فلتشر" و " ايرمي " • هؤلاء وغيرهم [1] من أصحاب المذهب الحسي يرون أن الحس هو مصدر المعرفة الانسانية وحدة ويرفضون ماعداه من وسائل أخرى كالعقل والقلب ويقول الاستاذ الدكتور توفيق الطويل : " غالى بعض اتباع هذه النزعة الحسية فانكروا وجود عقل يفكر واسرفوا في تقدير الحس الخالص مصدراً للمعرفة فالعقل يولد صفحة بيضاء Tubula rasa ليس فيه نقش سابق على التجربة • وان التجربة التي تخط على هذه الصفحة سطورها ، في هذا اتفق التجريبيون جميعا حتى " هربرت اسبنسر" الذي رأى أن المبادىء العقلية لاتجيء الى النوع إكتسابا ولكنها تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل حتى تصبح بالنسبة للفرد نظرية موروثة "[2]

والقائلون بالمذهب الحسي Sensationalism قديماًوحديثاً قد ردوا المعرفة في كل صورها إلى الاحساس واعتبروا الادراك الحسي Perception هو مصدر المعرفة حتى أن " توماس هوبز " يصرح بأن كل موجود محسوس ـ وهذا الرأي سنناقشة بعد قليل ـ والاحساس عنده مجرد حركة في الجسم الذي يحس ناشئة عن حركة في الجسم المحسوس وليس التخيل أو تداعي المعاني أو نحوه إلا مجرد حركات جسمانية • بل أن العواطف والوجدانات عندهمرجعها إلى اللذة والألم

---

١ ـ أنظر كتاب أ • د • توفيق الطويل :" أسس الفلسفة ص ٣٤٩ ومابعدها •
٢ ـ أ • د • توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ٣٤٩ •

اللذان ينشأن عن حركة الدورة الدموية • وليس العقل ومبادئه الأولية المزعومـــــة إلا وليد اللغة التى يستخدمها "[١] •

وأصحاب المذهب الحسى جميعا يرفضون المعرفة الفطرية وإذا كان لوك قـــد إعترف بالتفكير العقلى فى تفسيره للافكار المركبة وعمل العقل فى تكوينها فـــإن اهتمامه باليقين العقلى قدنثر الحسيين الذين انكروا عمل العقل وفاعلية النفس فـى المعرفة وقد فسروا الفكر بتداعى المعانى آليا ميكانيكيا ، كما فعل " هيـــوم "، ومنهم من أنكر كائن يسمى العقل كما ذهب الفيلسوف الانجليزى " ايير " زعيـــم الوضعية المعاصرة[٢] •

وإذا كان الفيلسوف التجرّيبى يرفض البحث فى كل ماهو خارج عن نطاق التجربة الحسيةفذلك لان العالم والفيلسوف التجريبى يلزمها المنهج التجريبى وهو يقـــوم على اللاحظة الحسية التجريبية العلمية • ومعنى هذا • أنه ملزم بالبحث فـــى المحسوسات دون أن يتجاوزها إلى تناول الروحانيات التى لاتنجم فى محسوس ،وليس معنى هذا أنه ينكر ماوراء المحسوس فهو يعترف بالروحانيات ويؤمن بها دون أن يتناولها بالبحث لأنها لاتخضع للبحث التجريبى فالايمان بما وراء الحس شئ يختلف عن البحث فى المحسوس دون غيره من الموجودات ولهذا أنكر للعالم الذى يلتـــزم بالمنهج التجريبى أن يؤمن بما وراء المحسوسات •

وقد حدث فى تاريخ البحث العلمى فى الاسلام أن كان العلماء يؤمنون بمـــا وراء المحسوس ويعترفون بأن لكل موضوع منهج مناسب له •

أن العالم فى معمله يقتصر على تناول المحسوسات ولكنه حين يخرج من معمله يكون حراً فى أن يؤمن بما يشاء من الموجودات غير المحسوسة • فالايمانبالروحانيات شئ لايتعارض قط مع الاقتصار على البحث العلمى فى المحسوس فهذه قضية وتلـــك قضية أخرى وقد اوضح لى هذا الرأى أستاذى الدكتور توفيق الطويل مشيراً إلـــى

١ ـ د• توفيق الطويل• أسس الفلسفة ص ٣٥١ ، ٣٥٢•

٢ ـ المرجع السابق ص ٣٥٢ •

اللبس الذى يحدثه بعض الباحثين بقولهم بأن كل عالم تجريبى وكل فيلسوف هو غير مؤمن بالضرورة بالروحانيات .

دور الادراك الحسى فى معرفة آثار الله كما جاء فى القرآن الكريم :

قد يظن أن الحس بما يشتمل عليه من سمع وبصر ولمس وشم وتذوق لايلعب دوراً فى معرفة الله سبحانه وتعالى ولكن الواقع غير ذلك فإن الحس لايدرك الله ادراكا مباشرا كما قال تعالى : " لاتدركه الابصار وهو يدرك الأبصار "(١) . وذلك لأن الله أجل وأعظم من أن يكون فى متناول الحس الانسانى فى الحياة الدنيا . وإنما تكون رؤيته تعالى للمؤمنين فقط من أهل الجنة يوم القيامة . قالى تعالى : " وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة "(٢) إلاان الحس يمكنه إدراك آثار الله ومخلوقاته الدالة على وجوده سبحانه ويقدم هذه الاحساسات للعقل ليستدل منها على وجود الله .

وقد أشار الله إلى الحس ودوره فى معرفة آثار الله فى آيات عديدة ومن أهم المصادر الحسية فى معرفة الله حاستا السمع والبصر ، وقد جاء ذكرهما فى بعض الآيات مجتمعتان وفى آيات أخرى ذكرت كل حاسة منهما منفردة .

أما عن ورود كل منهما منفردة فذلك مثل قوله تعالى فى حاسة السمع :" ربنا إنا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا "(٣) .. وقوله تعالى : " إذ تتلى عليه أياتنا ولىّ مستكبراً كأن لم يسمعها "(٤) . وقال تعالى : " أنى آمنت بربكم فاسمعون "(٥) .

إذن حاسة السمع تلعب دوراً فى معرفة النصوص المنزلة الدالة على معرفة الله اذ بهايستطيع الانسان أن يسمع كلام الله ودعوة الرسل للايمان به تعالى :

١ ـ س الانعام آية ١٠٣
٢ ـ س القيامة آية ٢٢
٣ ـ س آل عمران آية ١٩٣
٤ ـ س لقمان آية ٧
٥ ـ سورة يس آية ٢٥

كذلك حاسة البصر التي عن طريقها يستطيع الانسان أن يبصر بديع صنع الله وعظمة تنظيمه للكون ومافيه من مخلوقات متنوعة ويرى الوان وانواع الحياة على الارض من نباتوأزهار وطيور وحيوانات وغيرها فى البر والبحر وما خلق الله فى السماء من مجرات بها ملايين النجوم والكواكب وجعلها جميعا تسبح فى الفضاء بنظام دقيق منسق متقن . فإذا نظر الانسان الى هذا كله أدرك بديع صنع الله واستنتج من ذلك الادراك الحسى للموجودات معرفة عقلية بضرورة وجود خالق أوجدها على هذا النحو المعجز . ويقول الله تعالى عن حاسة البصر : " قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ "(١) الله سبحانه تعالى يخبر فى هذه الآية آنه جاء ببصائر تبصر عباده بوجوده ، فمن استطاع أن يبصر ذلك بعينه وقلبه وآمن بالله فإن فى ذلك الخير كل الخير ، ومن عمى بصره وبصيرته فقد ظلم نفسه وماظلمه الله فإن الله ليس على هؤلاء بحفيظ . وقوله تعالى : " مثلهم كمثل الذى استوقدناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون "(٢) فى هذه الآية يشبه الله القوم الذين لم يؤمنوا بوجوده رغم ماحولهم من آيات دالة على هذا الوجود بأنهم كمن استوقد ناراً فلما أضاءت ماحولهم فقدوا قدرتهم على الابصار ولم يدركواماحولهم على ضوء النار التى استوقدوها رغم وضوح الرؤية أمامهم .

أما الايات التى جمع الله فيها بين السمع والبصر فهى عديدة مثل قوله تعالى : " ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون "(٣) . وهذا السمع وهذا البصر فى الآخرة عندما يرى الكافرون ماوعدهمالله به من عذاب وماكانوا يكذبون به فى الحياة الدنيا فينكسون رؤسهم ويطلبون من الله أن يعيدهم إلى الحياة ليعملوا عملاً صالحاً بعد أن رآوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم ماكانوا يكذبون به من آمور الاخرة .

---

١ ـ س الانعام آية ١٠٤ ٢ ـ س البقرة آية ١٧

٣ ـ سورة السجدة آية ١٦

ثم هناك النصوص القرآنية التى جمع الله فيها بين المعرفة الحسيةوالقلبية وذلك فى قوله تعالى : " لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون "(١) وفى هذه الآية يصف الله من غفلوا عنه وكذبوا به بأن لهم قلوب لاتفقه وأعين لاتبصر آيات الله الدالة على وجوده ولهم آذان لاتسمع ماجاءهم من الحق وانهم كالانعام بل هم أضل .

وقال تعالى : " وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلاًماتشكرون "(٢) وقد جمع الله فى هذه الآية الاخيرة بين مصادر الادراك الحسى من سمع وبصر وماينتج عنها من استدلال عقلى على وجود الله وأفئدة تستنير بنور المعرفة الذوقية الكشفية جعلها الله سبحانه وتعالى ادوات للمعرفة الانسانية وإن كان الانسان قليلا مايشكر الله على نعمه .

ويحدثنا الله تعالى عن حاسة اللمس فى قوله تعالى : " ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلاسحر مبين "(٣) .

ويوضح الله فى هذه الآية ان الذين كفروا معاندين لايؤمنون بالله حتى ولو أنزل على رسوله كتاباً فى ورقة ولمسوه بأيديهم وتيقنوا من أنه منزل من عند الله لقالوا إن هذا إلا سحر مبين ولم يؤمنوا .

وذكر الحق سبحانه وتعالى حاسة الذوق فى مثل قوله تعالى :" فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف "(٤) وقوله تعالى : " فلينظر الانسان إلى طعامه انا صببنا الماء صباً ثم شققنا الارض شقاً فانبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتون ونخلا وحدائق غلباً وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولانعامكم "(٥)

---

١ ـ سورة الاعراف آية ١٧٩
٢ ـ س السجدة آية ٣٧
٣ ـ س الانعام آية ٧
٤ ـ سورة قريش آية ٤
٥ ـ س عبس آية من ٢٤ : ٣٢

وفى هذه الايات الكريمة يأمر الله الانسان بالنظر إلى طعامه وكيف ينبته الله ويشق الارض من تحته ويمطر السماء من فوقه حتى ينمو ويصير فاكهة مختلفة الالوان حلوة المذاق . أفلا يعتبر الانسان من ذلك ويدرك أن الله هو الذى أنعم عليه بهذه النعم !!

وحاسة الشم ندرك بها مابث الله فى الأزهار المختلفة الالوان والانواع من روائح زكية متعددة وهى على تعددها تحمل كل منها رائحة مميزة والكل ينبعث منه عطراً ربانياً زكياً إن دل على شئ إنما يدل على عظمة الخالق الذى أبدع كل شئ قال تعالى : " فروح وريحان وجنة نعيم " وقال تعالى محدثاً عن الروائح الطيبة التى يتميز بها شراب الابرار فى جنات النعيم : " ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً " (١).

هذه الايات وغيرها كثيرا يوضح لنا دور الحواس فى سماع كلام الله وسماع الاصوات الجميلة التى خلقها الله فى بعض مخلوقاته ، ودورها فى رؤية العالم من حولنا ومابه من آيات دالة على وجود الله وماخلق الله فيه من فاكهة وعسل النحل ونباتات مختلفة لها طعم لذيذ ورائحة جميلة وكلها تنطق بعظمة الخالق ودقة صنعه وحكمته البالغة وفضله ونعمه على عباده فصدق الله تعالى حين قال : " فإنها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور " (٢)

وقد جعل الله الجسم الانسانى بما فيه من حواس مشاركاً للقلب فى طاعة الله وأداء العبادات فكلف المؤمن بضرورة الحرص على نظافة بدنه حتى يكون طاهراً قلبا وقالبا .

فإذا كانت الحواس مساعدة على معرفة الله من خلال آثاره فإن جسم الانسان يشارك فى معرفته جل جلاله من خلال عبادته فقد جعل الله الصلاة مؤلفة من

---

١ ـ س الانسان آية ٥ ٢ ـ س الحج آية ٤٦

الحركات البدنية كالركوع والسجود والوقوف والجلوس للتشهد إلى جانب قرأة القرآن وذلك حتى تسمو الابدان وتتطهر من آدران الشهوة وتتابع الارواح القلوب فى خشوعها لله وامتثالها لأوامره تعالى ومحاولتها التقرب اليه وبهذا يكون الفرق بينها وبين أبدان الحيوانات وفى هذا المعنى يقول الشيخ الرئيس ابن سينا : " وهذه الهيئات المؤلفة من القراءة والركوع والسجود الطارئة فى الاعداد المنظمة المعينة آثر من الصلاة الحقيقية المربوطة الملتزمة بالنفس الناطقة • وهذا يجرى مجرى السياسات للابدان لانتظام العالم • فهذه الاعداد من جملة السياسات الشرعية كلف بها الشارع أنساساً عاقلاً بالغاً حتى يشبه جسمه ماتختص به روحه من التضرع الى جنسه العالى ليفارق البهائم بهذا الفعل "(١)

وعلى الرغم من أن قيمه الحس فى معرفة آثار الله وبالتالى وجوده لايمكن التقليل من شأنها إلا أنه ينبغى علينا إلا نعطى الحواس كمصدر حجماً أكبر من حجمها فالقدرات الحسية للانسان على اختلافها من سمع وبصر ولمس وتذوق وشم محدودة ، فامكانيات الانسان البصرية لاتمكنه مهما بلغت قوتها من أن يرى الاشياء المتناهية فى الصغر كما أنه لايرى إلا فى درجة كافية من الضوء إذا قلت أو زادت عن معدلات معينة لايقوى على الابصار •

كما أن الانسان لايرى من وراء حجاب ، ويعجز عن رؤية مايقع على أبعاد تتجاوز قدرته البصرية •

وقس على ذلك جميع حواس الانسان فإنها جميعاً تؤدى وظائفها وهى فى كامل قواها فى حدود معينة لاتقوى على تجاوزها بل اننا نشاهد من حولنا مخلوقات أقل مرتبة من الانسان وتتمتع بقدرات حسية تفوق قدرات الانسان ، وذلك لان ظروفها المعيشية تطلب قدرات أقوى مما لدى الانسان الذى لاتطلب ظروفه البيئيه واحتياجاته المعيشية درجة أعظم مما هو عليه • فكل كائن ميسر لما خلق له •

---

١ ـ ابن سنا : رسالة الصلاة ص ٩

فالصقور لها بصر حاد يساعدها على رؤية الفريسة عن بعد ، والكلاب لهـــا قدرة فائقة على الشم آضعاف قدرة الانسان ، القطط قادرة على رؤية فريستها فـــي الظلام بينما الانسان لاتتيسر له الرؤية إلا إذا وقع شيء من الضوء على مايريـــد أن يراه .

والحيوانات لها قدرة على الاحساس بتقلبات الجو دون الحاجة إلى إستخـــدام الاجهزة كما يفعل الانسان ، والخفاش له من حدة السمع مالايتوفر للانسان .

اذن نخلص من ذلك الى ان الانسان يرى ويسمع ويلمس ويشم ويتذوق فى حدود مامنحه الله من قدرات وهى قدرات محدودة وتشهد على ذلك التجربة الحسية .

وإن نقص القدرات الحسية عند الانسان لايقلل من أهميتها .

وإن استخدامه للالات كالميكرسكوب والتيليسكوب والسماعات والرادار وغيرها ما هو إلا محاولة من جانب الانسان لسد النقص الذى أدرك وجوده فى حواسه وتيقـــن أنها لاستعفه فى الكثير من الاحيان والمواقف التى تطلب قدرات أقوى مما يتمتـــع به ، فاخترع العديد من الاجهزة والالات ليسد هذا النقص .

إن لله حكمة بالغة فى أن يخلق البشر على تلك الهيئة وبهذه القدرات الحسية المحدودة ، إذ لوكان الانسان يقوى على الرؤية من وراء حجاب وفى جميع الظـــروف وعلى كل الابعاد لكان فى ذلك كشف لعورات الناس ولتسبب ذلك فى العديد مـــن المشكلات التى لاتخفى علينا . ولوكان الانسان يسمع بدرجة أقوى مما هو عليـــه لاختلطت عليه الاصوات وعجز عن تمييزها ، ولسمع مالايرضيه ويقلقه ويزعجه ولـــو كانت حاسة الشم لدى الانسان أقوى مما هى عليه لشعر دائما بالغثيان من جراء مـــا يشم من روائح نفاذة ومختلطة .

وقد قال الله سبحانه وتعالى : " إنا كل شيء خلقناه بقدر "[1] . وهو سبحانـــه

---

١ - س القمر آية ٤٩

قد خلق الانسان وهو يعلم تمام العلم إحتياجاته فى الحياة من القدرات الحسية وزوده بها فى حدود هذه الاحتياجات وله فى ذلك حكمة • ثم زوده بالعقل الذى يستطيع به أن يخترع المعدات والاجهزة العلمية التى تمكنه من سد نقص قدراته الحسية ليستعملهافقط فى حالة الضرورة فالانسان فى حياته اليومية العادية ليس فى حاجة إلى ان يرى ماحوله من ميكروبات وما يلتصق منها ببدنه ومأكله ومشربه وملبسه حتى لايشعر بالتقزز والاشمأزاز • وإنما يكفيه ان يستخدم الميكرسكوب ليرى تلك الميكروبات عندما يعمد الى دراستها وملاحظتها بهدف إتقاء شرورها • ومن هنا ندرك أن لله تعالى حكمة بالغة فى أن يخلق الانسان على هذه الصورة وبهذه الامكانيات الحسية المحدودة •

ومن ثم لايصح القول بأن كل موجود محسوس كما قال ذلك " توماس هوبز " فهناك من الموجودات ماهوغير محسوس وتعجز مصادر الادراك الحسى عن معرفته والاحساس بوجوده •

وقد تكشف لنا الاجهزة العلمية الاكثر تطوراً فىالمستقبل عن موجودات تعجز اليوم عن إدراكها حسياً مع قربها الشديد منا • فليس كل موجود محسوس وما أكثرماحولنا من موجودات لانشعر بها ولذلك يجب علينا إلا نقف عند الحس كوسيلة وحيدة للمعرفة كما فعل الحسيون خامة وأن الله قد منحنا العقل وميزنا به عن سائر الموجودات فلابد أن له دور فى المعرفة لايحق لنا أن ننكر ونتجاهله وهذا يقودنا الى الحديث عن العقل كأداة من أدوات المعرفة بالله •

٢ ـ العقل كمصدر للمعرفة :

ذهب أصحاب المذهب العقلى Rationalism إلى أن الافكار العقلية الاولية السابقة على التجربة أو البديهيات العقلية الشديدة الوضوح والتميز هى مصدر المعرفة الانسانية وان هذه البديهيات العقلية القبلية تتميز بالضرورة

necessity والشمول univerality فالمعرفة العقلية صادقة بالضـــرورة وقضاياها كلية عامة تصلح فى كل زمان ومكان ، كالقول بأن " الكل أكبر من الجـزء فهذه قضية عقلية أولية بديهية كلية وضرورية الصدق دائما .

وكانت الفلسفة الاوربية فى عصر ديكارت أى فى القرن السابع عشر يسودهـــا الاعتقاد بوجود هذه الافكار الفطرية التى تمثل حقائق بسيطة غير مركبة وحقائـــق موضوعية غير ذاتية كفكرة الله . النفس ، والامتداد وهـى تـدرك بالحـــدس العقلى دفعة واحدة من غيرمقدمات تسلم اليها وعلى غير فترات متعاقبة ... ومنها يستنبط العقل النتائج التى تلزم عنها وبهذا تتألف المعرفة اليقينية (١) .

أما المعرفة الحسية فهى فى نظرهم معرفة ظنية أو إحتمالية وليست يقينيـــة الصدق فالحواس تخدعنا ومايخدعنا مرة قد يخدعنا مرات فالحقيقة عندهم قائمـــة فى العقل ولاوجود لها خارج العقل . والعقل كما يقول ديكارت أعدل الاشياء قسمـة بيـــن الناس واحكامه مطلقة يقينية (٢) لاشك فيها (٣) .

وقد رفض ديكارت ومدرسته المعرفة المكتسبة عن طريق الحواس فالانسان عندهم لايتلقى العلم من الخارج بل من عقله هو عن طريق المبادىء العقلية كمبدأ الذاتيـة ومبدأ عدم التناقض والاولويات الرياضية كقولنا المساويان لثالث متساويان والبديهيات المنطقية كقولنا الكل أكبر من الجزء وكلها توجد فى عقل الانسان سابقة على كـــل تجربة ويستطيع عن طريقها ان يعرف العالم الخارجيل يستطيع أن يفرض قوانينـــه ومبادئه عليه (٤) .

---

١ ـ أ . د . توفيق الطويل : اسس الفلسفة ص ٣٤٤ .
٢ ـ أ ـ د . يحيى هويدى : "ديكارت " وأيضا د . عثمان أمين : " ديكارت "
٣ ـ يرفض الفلاسفة المعاصرون فكرة اليقين فى المعرفة إلا فى القضايا التحليليـــة كقضايا الرياضة التى ليس فيها جديد يضاف إلى علم الانسان ويحتمل الصـــدق والكذب أما الاحكام العلمية ذات القضايا التركيبية فهى احتمالية الصدق وليست يقينية ولمعرفة المرزيد فى هذا الموضوع أرجع إلى د . توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ٣٤٣ ومابعدها .
٤ ـ أ ـ د ـ توفيق الطويل : أسس الفلسفة ص ٣٤٢ .

هذه المبادىء العقلية النظرية البسيطة هى بمثابة الاساس الذى لاشك فى صدقه الذى تبنى عليه المعرفة المركبة عن طريق الاستنباط والاستنتاج العقلى فينتقل العقل من فكرة بديهية بسيطة إلى فكرة أكثر تركيبا حتى يصل إلى المعرفة • ولذلك فإن الاحكام الرياضية والمنطق فى رأيهم تمثل النموذج الصحيح لما يجب أن تكون عليه القضايا الفلسفية لأنها قضايا يقينية •

وبذلك حرص العقليون على الاستعانة بالمنهج العقلى الاستنباطى فى تحصيل المعرفة الانسانية فى العلوم المختلفة (١)

أما حقائق الوحى فقد نحى ديكارت مجال العقل عنها لأنها فى رأية لاتدرك إلا بمدد من السماء خارق للعادة فارتد بهذا إلى النزعة اللاعقلية فى مجال الدين وقد رفضها أتباعه فى القرن الثامن عشر وبسطوا سلطان العقل على المجالات التى أبعدها هو عنه (٢) وبذلك رفض العقليون أى طريق للمعرفة غير العقل ••

دور العقل فى معرفة الله كما جاء فى القرآن الكريم : ـ

أسند الحق سبحانه وتعالى دوراً كبيرا للعقل فى النظر والتأمل فى كل مايحيط به من موجودات والاستدلال منها على وجود الله وهذا يثبت ان العقل السليم قادرا على الاستدلال على وجود الله من آثاره ولذلك حض الله عباده على النظر العقلى فى العديد من آيات الكتاب الحكيم •

ومعرفة الله معرفة قائمة على منهج الاستدلال العقلى تتجلى فى قوله تعالى " سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " (٣) •

---

١ ـ د • يحيى هويدى : مقدمات فى الفلسفة العامة ص ١٠٩
٢ ـ د • توفيق الطويل : اسس الفلسفة ص ٢٤٥ •
٣ ـ س فصلت آية ٥٣ •

ومن الآيات القرآنية التي حث فيها الله سبحانه وتعالى الانسان أن يعمل عقله في الكون من حوله وما به من بديع صنع الله ليستدل على وجوده الاعظم قوله تعالى: " هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم في الارض مختلفا الوانه إن في ذلك لآيات لقوم يتذكرون وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وسبلا لعلكم تهتدون " (١).

وقوله تعالى : " الم يجعل الارض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا"(٢)

والحق سبحانه وتعالى يستنكر ألايعمل الانسان عقله فيما تعج به الارض من ظواهر طبيعية وموجودات مختلفة ، ويعتبرها غفلة عقلية وقد اسماها الله عمى القلوب قال تعالى :" أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور "(٣)

وقوله تعالى : " أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت "(٤).

هذه الآيات وغيرها الكثير يدعو الله تعالى فيها عباده إلى التأمل والنظر

---

١ - س النحل آية ١٠ إلى ١٥ ٢ - س النبأ آية ٥ : ١٦

٣ - س الحج آية ٤٥ ٤ - س الاعراف آية ١٨٥

العقلى [١] وتلك الآية الاخيرة يلفت الحق سبحانه وتعالى فيها أنظار العقلاء من الناس ليتأملوا بديع صنع الله ودقته فى خلق الابل • خلقها الله خصيصا لتكون سفينة للمسافر عبر الصحراء وجعل فيها كل الخصائص والمميزات التى تؤهلها لذلك•

فإذا نظرنا إلى هذه المخلوقات نظرة مدققة وأخذناها كمثال للموجودات التى تحيط بنا والتى يأمرنا الله تعالى بتأملها للوقوف على مابها من دقة الصنع سنتبين مايأتى : ـ

١ ـ خلق الله الابل وذودها بسنام تختزن فيه الماء والغذاء الذى تحتاج اليه اثناء سفرها فى الصحراء الجرداء حتى لاتهلك ظمأ أو جوعا •

٢ ـ ذود الله أطراف الابل بأظلف مشقوقة تساعدها على السير فى رمال الصحراء الغزيرة •

٣ ـ جعل الله الشفاة العليا لتلك الحيوانات مشقوقة حتى إذا أقبلت على أكل النباتات الصحراوية الشوكية لايمسها أذى•

٤ ـ كسى الله أجسام الابل بطبقة من الوبر السميك الذى يحميها من قسوة الظروف الجوية فى الصحراء شتاء وصيفا •

٥ ـ جعل الله للابل آذان موسيقية تطرب لسماء الغناء والالحان ، وتلك حكمة بالغة من الله لان الابل إذا سمعت الحداء حدثت لها حالة نشوة وتطرب ويشغلها هذا الطرب عما تعانية من تعب أوجوع أو ظمأ فلاتشعر بما تعانى •

ثم لايقف الامر عند حد النظر والاعتبار وإنما حث الله الانسان على الجدل فى حدود قدراته العقلية وذلك فى قوله تعالى :

" وجادلهم بالتى هى أحسن "[٢] وقد طلب من رسوله الكريم أن يجادل الكفار

---

١ ـ النظر ينقسم " الى صحيح يؤدى إلى مطلوب وفاسد يقابله " إنظر الايجى الموقف فى علم الكلام ص ٢٢ كما يقسم الى " جلى وخفى وذلك يرجع إلى صحة أو فساد مادته وصورته "أنظر مقدمة " المغنى " للقاضى عبدالجبار ٢ ١٢ ص و تحقيق وتقويم د • ابراهيم مدكور أما المعتزلة فقد عدو النظر حسنا دائما وأنكروا النظر الخاطىء والفاسد • المرجع السابق نفس الصفحة والنظر الصحيح عند جمهور المتكلمين يفيد العلم أرجع الى الايجى " المواقف فى علم الكلام ص ٢٣

٢ ـ س النحل آية ١٢٥ •

ويقدم لهم الحجج والبراهين العقلية على آمور العقيدة وأوصاه تعالى ان يلتزم فـــى ذلك بآداب الحوار والجدل وأعلمه ان ماعليه الا البلاغ المبين قال تعالى " فذكـــر أنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر "[١] وحرم اكراه الناس على اعتناق الاســـــلام " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فيكفر "[٢] وقال تعالى لاأكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ....."[٣] وأنه تعالى لوشاء لجعل الناس أمة واحدة وان له فى إختـــلاف عقائد الناس حكمة :

ومن الآيات الدالة على إهتمام القرآن بتقديم الدليل والبرهان العقلى قوله تعالى: " قل هاتوا برهانكم "[٤] وقوله تعالى : "ليهلك من هلك عن بينة ويحى من حى عن بينة "[٥] وقوله تعالى : "إن عندكم من سلطان بهذا "[٦] أى هل لديكم الدليل على صحة هذا.وقوله تعالى : " قل فلله الحجة البالغة "[٧].

إن النظر العقلى يلعب دوراً كبيرا فى اثبات وجود الله خالق هذا الكـــــون . ولكن هل للعقل من الامكانيات والقدرات مالاحدود له أم ان له حدود لايستطيـــــع أن يتجاوزها ومن ثم يعجز عن تصور بعض الامور التى تعد خارج مجال تصوره حيـــث لايقوى على تعقلها وإدراكها ؟ وهل للعقل قدرة على معرفة ذات الله ؟ .

إن العقل من أعظم الهبات التى وهبها الله للانسان وميزه بها عن غيره مـــن المخلوقات التى حولنا غير أنه يجب علينا ألاّ نغالى فى تقدير إمكاناته بالدرجـــة التى تجعلنا نرفض مايعجز عن تصوره ونعتبره مستحيلا أو غير ممكن الوجود . إذ ينبغى ان نعطى لكل أداة من أدوات المعرفة حجمها الحقيقى دون إفراط أو تفريط وليس هذا المثل البسيط الذى أضربه للتدليل على ان مايعجز العقل عن تصوره ليس مستحيلا وهو : لو قيل للانسان فى العصور القديمة أو الوسطى أنه يمكنه الوصـــول إلى القمر وانه فى امكانه مشاهدة وسماع من يبعد عنه ملايين الكيلومترات . هـــل

كان سيد البلاغة آية ٢٢
٢ ـ س البقرة آية ٢
٥ ـ س الانفال آية ٤٢
٧ ـ س الانعام آية ١٤٩
٢ لا س الكهف آية ١٨
٤ ـ س الانبياء آية ٢٤
٦ ـ س يونس آية ٦٨

كان عقله يمكن ان يصور ذلك ؟ بالطبع لا .

ان قدرات العقل في ذلك الوقت كانت قاصرة عن تصور مثل هذه الامور التي كان يعدها العقل الانساني في ذلك الوقت من المستحيلات . بينما أنسان القرن العشرين يشاهد عن طريق الاقمار الصناعية والارسال التلفزيوني ما يحدث في أي بقعة في العالم على الهواء مباشرة دون أن يتعجب من ذلك ويرى رواد الفضاء يسيرون على سطح القمر من خلال شاشة التليفزيون دون أن يستدعي ذلك دهشته ، وماذلك إلا لان عقله إستطاع أن يستسيغ تلك الامور وغيرها مما كان يعجز عن تصورها في الماضي فقدرات الانسان العقلية صارت أكثر نضجا واشد إتساعا لان الادراك العقلي لهذه الامور إقترن بالادراك الحسي لها . ولان الله يكشف عن العقل حجابه شيئا فشيئا وله في ذلك حكمة . فموضوعات عالم الشهادة التي هي من إختصاص العقل قد يبدو بعضها مستحيلا ثم نصل بعد إلى الوسائل المؤدية إلى معرفة تلك الأمور بعينها وبعد أن يشهد لها الحس بالوجود يصدق بها العقل ويتقبلها بعد أن كان يرفضها ويشك في صحتها .

والحقيقة أن التقدم العلمي نفسه وهو ثمرة المجهودات العقلية والتجريبية لهو أكبر دليل على ذلك فهل بعد لانزال نصر على أن الامور التي تفوق قدرات العقل هي امور مستحيلة بعد أن ضاقت في عالم اليوم دائرة المستحيل واتسعت دائرة الممكن ؟

وقد ادرك الحكماء قصور العقل في إدراك حقائق الاشياء إدراكا كاملا والفارابي يشير إلى ذلك في قوله " الوقوف على حقائق الاشياء ليس في قدرة العقل ونحن مانعرف من الاشياء إلا الخواص واللوازم والاعراض ولانعرف الفصول المقومة لكل منها الدالة على حقيقتها بل أنها أشياء لها خواص ، فإنا لانعرف حقيقة الاول (يعني الله) ولا النفس ولا الفلك ولا النار ولا الهواء والماء والارض ولانعرف حقائق الأعراض [1] .

---

١ - أنظر الفارابي التعليقات ص ٧ طبع حيدر أباد الدكن ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦ م

وعند ابن سينا العقل والحس عاجزان عن ان يصلا الى المعرفة التى لاتدخل فى قدراتهما وتتجاوز حدودهما تلك المعرفة لايكون السبيل إليها إلابالنفوس البشرية المطمئنة المتطهرة التى تتلقى عن الله دون واسطة من حس أوعقل فتشرق عليها الانوار القدسية فتسعد بها سعادة آبدية (١) .

والغزالى يرى عن تجربة أن وراء طور العقل طور آخرتنفتح فيه عين آخرى يبصر بها الغيب وما يكون فى المستقبل وامور آخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عند إدراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن إدراك التمييز (٢) .

أما الفيلسوف " البرت اشفيتر " (٣) فيرى ان كل عقيدة ثمينة لايمكن استمدادها من معرفة العالم بل تنشأ من التجربة التفكيرية التى تقوم بها ارادتنا للحياة والتى نتجاوز بها طور كل معرفة للعالم وتلك هى الحقيقة التى يدركها الفكر العقلى على انها حقيقة يجب أن نعيش بها وان الطريق إلى التصوف الحقيق يقود .... إلى تجربة عميقة للعالم ولارادتنا الحياة وعلينا جميعا مرة أخرى ان نكونمفكرين بحيث نصل إلى التصوف الذى هو النظرة المباشرة العميقة الوحيدة فى العالم وبحيث علينا ان نتحول فى ميدان المعرفة إلى النقطة التى تنتقل فيها المعرفة إلى تجربة للعالم ولابد لنا جميعا أن نصبح دينيين من خلال إلفكر (٤) .

وقد استثنى ديكارت من منهجه العقلى كل حقائق التنزيل واعتبرها فوق متناول العقل . وجعل الايمان بها من أعمال الارادة وليس من أعمال الذهن واصبح ميدان العقل عنده لايتجاوز الحقائق الفلسفية .

---

١ ـ ابن سينا : رسالة الفردوس ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة تحمل رقم ٣٩٨ مجاميع حكمة ل ٩٣ .

٢ ـ الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١٣٤ وانظر ايضا كتاب مهرجان الغزالى فى الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ـ المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ـ مقالة د. محمد ثابت الفندى ص ٩٨ ، ٩٩

٣ ـ فيلسوف المانى معاصر ولد سنة ١٨٧٥ وتوفى سنة ١٩٦٥ وهو فيلسوف أخلاقى ومرشد روحى يدعو إلى حب الانسانية قولا وفعلا ومبدؤه الاساسى هو توفير الحياة انظر مقدمة كتاب د . عبدالرحمن بدوى " فلسفة الحضارة "

٤ ـ د . عبدالرحمن بدوى : فلسفة الحضارة ص ١٠١ .

أما الحقائق الدينية التى تهدى إلى الجنة فإنها فوق متناول العقل وليس من الحكمة ان نسلمها إلى ضعف استدلالاتنا العقلية لأنها بمدد غير عادى من السماء أو بوحى ينزل من الله على من يصطفيه من عباده (١) .

وهذا يقودنا إلى الحديث عن القلب كأداة للمعرفة الذوقية .

٣ ـ القلب كأداة للمعرفة :

ان الذين يقولون بالقلب كاداة أومنهج للمعرفة هم الصوفية (٢). فقد ذهبوا الى ان القلب الصافى الذى توجه مخلصا إلى الله بعد تنقيته وتصفيته من ادران

---

١ ـ ارجع الى د . توفيق الطويل " قصة الصراع بين الفلسفة والدين ط ثالثة ص١٩٢

٢ ـ التصوف نوعان احدهما دينى والآخر فلسفى . فالتصوف الدينى ظاهرة مشتركة بين الاديان جميعا سواء فى ذلك الاديان السماوية أو الاديان الشرقية القديمة والتصوف الفلسفى قديم عرف فى الشرق وفى التراث الفلسفى اليونانى وفى أوربا فى عصريها الوسيط والحديث .
ولم يخل العصر الحاضر من فلاسفة أوربيين ذوى نزعة صوفية مثل " برادلى " فى انجلترا " وبرجسون " فى فرنسا .
وكان التصوف الدينى يمتزج احيانابالفلسفة كما هو الشأن عند بعض صوفية المسيحية والاسلام وكذلك كان يحدث إمتزاج أحيانا عند فيلسوف من الفلاسفة بين النزعة العقلية والنزعة الصوفية . فقد لاحظ " برتراند رسل " فى بحث له تحت عنوان " التصوف والمنطق " (Mysticism and Logic)
أن من الفلاسفة من أمكنه الجمع بين النزعة الصوفية والنزعة العلمية ورأى فى ذلك الجمع أو التوفيق بين النزعتين سموا فكريا جعل من أصحابة فلاسفة بالمعنى الصحيح فيقول مانصه " إن أعظم الرجال الذين كانوا فلاسفة شعروا بالحاجة إلى كل من العلم والتصوف إذ العاطفة الصوفية هى الملهم لاعظم مايكون للانسان ـ أنظر أ . د . أبو الوفا الغنيمى التفتازانى . مدخل الى التصوف الاسلامى ص ٤ الطبعة الثانية وانظر

Russell. K(B.) Mysticismand Logic. Selcted Papers, The Modern Liprary . NewYork, 1927. pp.26 -55 _

الشهوة والهوى [1] وشوائب النفس الامارة بالسوء وتحليته بمكارم الاخلاق يصير أهلا لتجلي أنوار الحق عليه .

والمنهج القلبي عند الصوفية هو أصدق المناهج للوصول الى معرفة الله معرفة ثابته . ولاغرابة في ذلك فالقلب كما وصفه الغزالي " هو العالم بالله ، وهو المتقرب اليه ، وهو العامل لله وهو الساعي ، اليه، وهو المكاشف بما عنده ، وهو المقبول عند الله إذا سلم من غيره وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغيره وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب " [2] .

كما أن القلب هو العاشق لله وهو المشتاق اليه وهو الخاشع لجماله وجلاله وهو محل النقاء والصفاء ولهذا فإن القلب أقدر على معرفة الله من الحس والعقل .

وقد أشار الغزالي إلى ذلك في كتابه"المنقذ من الضلال " حيث يذهب إلى أن العلم اليقيني لايكون عن طريق الحواس أو العقل وإنما يكون عن طريق القلب ويعرفه بأنه " العلم الذي ينكشف فيه المعلوم إنكشافا لايبقى معه ريب ولايقاربه إمكان الغلط ، ولايتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارنا لليقين مقارنة لوتحدي باظهار بطلانه من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكاً أو إنكاراً " [3]

والسبيل إلى حصول المعرفة القلبية يتأتى بمحاربة الشر في النفس وتغليب جانب الخير عليه واخضاع النفس الامارة بالسواء للنفس المطمئنة والتحكم في شهوات النفس وأهوائها ، والزهد في الدنيا والاقبال على الله فالتخلي عن الدنيا ـ في

---

١ ـ هناك فرق بين الأهواء والشهوات فالاخيرة تعني كل ماتقترن بلذة حسية لكل عضو في البدن له اغراض يشعر الانسان بلذة إشباعها إذا ماأطلق لنفسه العنان في إشباع لذات بدنه أدى به ذلك الى الانغماس في حياة مادية خالصة كحياة الحيوانات ـ واما الهوى فهو ميل النفس إلى تحقيق رغباتها وهو لايقتصر على تحقيق الرغبات الحسية بل ينزع إلى لذات من نوع آخر كلذة التسلط والقهر وحب الرئاسة والسيطرة وحب الظهور والكبرياء والحقد والحسد وغيرها. انظر ابن سينا : رسالة الاخلاق ضمن مجموعة تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات ط أولى ص٣

٢ ـ الغزالي : احياء علوم الدين ط ٣ ص ٢

٣ ـ الغزالي : المنقذ من الضلال ـ طبعة مكتبة النشر العربي ص ٣٩ .

رأى الغزالى " هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة وصار الداء عضالا " . وتخلية القلب من كل الصفات الذميمة وتحليته بالصفات الحميدة حتى يتحقق صاحبة بالكمال الأخلاقى وتضعف بشريته وتقوى روحانيته ويصير أهلا لتلقى المعرفة الذوقية من لدن الله تعالى .

والسالك طريق الصوفية يجاهد نفسه بالرياضيات العملية كالصلاة على ان يكون حاضرا مع الله بقلبه والصوم والذكر والسماع والعزلة والخلوة والصمت والجوع والسهر والسياحة فى الله وغيرها من الرياضات العملية وهو فى آدائه لتلك العبادات يحرص على تحقيق الغرض منها من ترقيق القلب وتصفية النفس وسياستها والتحكم فيها ومراقبتها وحضور القلب مع الله والتحلى بالخشوع والهيبة والخوف من الله والتضرع له ومناجاته والتقرب اليه . وتخلية القلب عمن سواه والاخلاص فى التوجه اليه وصدق النية والشوق إلى حضرته والانس به تعالى .

ويعين على ذلك قوة اليقين وشدة الايمان وسد الحواس وعدم التفكير فى هموم الدنياوية .

والصوفى أيضا حريص على الرياضات الروحية التى تزكى نفسه وتجعل منه أنسانا روحانيا أقرب الى الملائكة منه إلى البشر فيجاهد للتحقق بمقامات السلوك الصوفى كالتوبة ، والزهد ، والصدق ، والاخلاص ، واليقين ، والمراقبة ، والمحاسبة والاحسان ، والصبر ، والتوكل والمحبة وغيرها من مقامات السلوك الصوفى التى يتدرج فيها السالك كلما تحقق بمقام منها أرتقى إلى مقام آخر على يد شيخ من شيوخ الصوفية الكمل الواصلين يرشده ويعلمه ويقتدى به ويكون عونا له على تخطى ما قد يعوقه عن مواصلة السير فى الطريق إلى الله .

والسالك طريق الصوفية تعترية أحوال سريعة الزوال يشعر خلالها بمشاعر واحاسيس تغمر وجدانه وتملك عليه كل كيانة كحال القرب ، وحال الانس ، وحال القبض ، وحال البسط ، وحال الفناء ، وحال الاتصال . وغيرها .

إذن هو طريق الاخلاص في الرياضات العملية والروحيةوبارشاد الشيخ للمريد يعينه على ان يتحقق بالكمال الاخلاقي ويتطهر سره ويصفو قلبه ويصير مهيئا لتقبل المعرفة الذوقية ويكون ذلك في حالات خاطفة عندما يعمد السالك إلى الذكر مثلا وهو منصرف الذهن عما سوى الله ولايزال يردد عبارات الذكر مثل الله ، الله أو لااله الا الله ، أو سبحان الله أو غيرها وهو متفكر في الله وغافل تماما عما سواه فيملك عليه الحق شعوره ووجدانه وقلبه وتسيطر فكرة الله على بؤره شعوره الذاكرة وتغلب على ماعداها من أفكار ثم يكف اللسان عن الذكر ويبقى ذكر القلب ويستغرق الذاكر في المذكور فيفنى عما حوله ثم يفنى عن نفسه ويبقى بالله ، وفي هذه اللحظات الخاطفة في حال الفناء يتم الاتصال الروحي بين العبد وربه فيفيض الله على قلب عبده الواصل الى حضرته المعرفة الذوقية النورانية فيضا مباشرا من لدن الله دون واسطة من حس أوعقل .

يقول الغزالي : " كل حكمة تظهر في القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهي بطريق الكشف والالهام "(١) ويقول : " اعلم ان أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل " الالهام " بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم حيث لايعلمون وتارة على سبيل " الرؤيا الصادقة . وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كما يكون في المنام - وهذا أعلى الدرجات وهي من درجات النبوة العالية "(٢) .

وقد حاول الغزالي توضيح الكشف الصوفي وتبسيطه حتى يسهل تصوره فشبه قلب الصوفي الوصل الى الحضرة الالهية بالمرآة المجلوة وشبه اللوح المحفوظ بالمرآة

---

(١) احياء علوم الدين ، ط ٣ ، ص ٢٠

(٢) احياء علوم الدين ، ط ١ ، ص ٨٢٠

أيضا وأنه في حالة الفيض الالهي ينعكس على مرآة القلب بعض ماهو منقوش على مرآة اللوح المحفوظ من الأسرار والمعارف الالهية يقول الغزالي في ذلك : " ان القلب مثل المرآة واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضا لأن فيه صورة كل موجود واذا قابلت المرآة بمرآة أخرى حلت صورة مافي احداهما في الأخرى ، وكذلك ظهور صور مافي اللوح المحفوظ الى القلب اذا كان فارغا من علائق الحواس ، طالع جواهر عالم الملكوت فظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ واذا أغلق باب الحواس كان بعده الخيال ، لذلك يكون الذي يبصره تحت ستر القشر (أي مستورا بالصورة الخيالية) وليس كالحق الصريح مكشوفا فاذا مات القلب بموت صاحبه (أي اذا فني القلب بفناء صاحبه) لم يبقى الخيال ولا حواس وفي ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال ويقال له " فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد " (١).

اذن المنهج الذي اصطنعه الصوفية لمعرفة الله هو المنهج الكشفي الذوقي وهو ادراك وجداني مباشر. وقد سمي منهجا كشفيا لان الله يكشف فيه لعباده الواصلين الى حضرته من المعارف ماتعجز عنه الحواس والعقل وفي ذلك يقول الطوسي" الكشف بيان مايستتر على الفهم فيكشف عنه للعبد كأنه رأى عين " (٢).

ويقول ابن سينا " الحس تصرفه فيما هو من عالم الخلق والعقل تصرفه فيما هو من عالم الأمر ومافوق الخلق محتجب عن الحس والعقل وليس حجابه غير انكشافه كالشمس فليس احتجابه تعالى عن عباده لكونه غير ظاهر وانما لقصورهم عن ادراكه فلا حجاب الا في المحجوبين ". (٣)

---

(١) الغزالي : كيمياء السعادة ، ص ٨٧ ، ٨٨.
(٢) الطوسي : اللمع ، ص ٤٢٢.
(٣) ابن سينا : رسالة القوى الانسانية وادراكاتها ، مطبعة كردستان ، ص ٢١٢.

وقد جعل الامام الغزالي المعرفة بالله مرادفه للايمان ولذلك رتب درجات المعرفة بالله، كما يلي:

١ - المرتبة الأولى : ايمان العوام وهو ايمان التقليد المحض.

٢ - المرتبة الثانية : ايمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته عند الغزالي قريبة من درجة ايمان العوام.

٣ - المرتبة الثالثة : ايمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين. وكلما كان الايمان بالله قويا كلما زادت درجة صاحبه من المعرفة اليقينية بالله (١).

ثم يضرب الغزالي مثالا للتك المراتب الثلاثة من الايمان فيقول " ونبين لك هذه المراتب بمثال وهو ان تصديقك بكون زيد مثلا في الدار له ثلاث درجات " (٢).

الأولى : أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب بوجوده في الدار فسكن قلبك يسكن اليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا هو الايمان بمجرد التقليد وهو مثل ايمان العوام الذين سمعوا من أبائهم بوجود الله فصدقوا ماسمعوا به.

والثانية : أن تسمع صوت زيد من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل من ذلك على كونه في الدار وهي درجة أعلى من السابقة وأكثر يقينا لأن سماعك للصوت دليل على وجود صاحبه وهذه الدرجة من الايمان ممزوجة بدليل ويمكن أن يتطرق اليه الخطأ فقد يكون من بالدار ليس زيد وسمعت صوت يقلده أو قريبا من صوته الا أن ذلك قد لايخطر ببال السامع لانه لايقدر هذا اللبس ولايضعه في اعتباره وهي معرفة المتكلميين أو علماء الكلام والفلاسفة.

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ، ط ٢ ، ص ١٥.

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

والثالثة : أن تدخل الدار بنفسك فتنظر الى زيد بعينك وتشاهده وهذه هى المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهى تشبه معرفة المقربين والصديقين لانهم لايؤمنون الا عن مشاهدة ويكون ايمانهم اقوى من ايمان العوام والمتكلمين (١).

وأخص مايميز المعرفة الذوقية الشهودية (٢) انها معرفة خاصة نتيجة تجربة شخصية وهى ليست شيئا مشتركا بين الناس جميعا . كما تمتاز بانها معرفة مباشرة من الله تحدث فى ومضة سريعة فى حال الاتصال الروحى بين العبد وربه ويصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة ومن ثم يستعمل الصوفية الرمز فى التعبير عن معارفهم وأحوالهم وهى سر من أسرار الله يفضى به الى خاصة المقربين اليه وتفضى الى سعادة غامرة لايعرف حلاوتها الا من ذاقها وخاض التجربة بنفسه ولذلك قيل " من عرف الله صفا له العيش ، وطابت له الحياة وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله (٣).

دور القلب فى معرفة الله كما جاء فى القرآن الكريم :

أشار الله فى كتابه العزيز الى المنهج القلبى فى معرفته سبحانه فى قوله تعالى " أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد " (٤) . فمعرفة الله عن طريق العقل هى معرفة من يستشهد بالخلق على وجود الخالق. أما المعرفة الله عن طريق القلب فهى معرفة من يشهد بالحق ولايشهد عليه.

ولاشك أن معرفة الله القائمة على الشهود الذوقى هى أصدق المعارف وأثبتها يقول الحق سبحانه وتعالى عن أصحابها : " أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه " (٥).

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة.
(٢) انظر أ ، د. أبو الوفا الغنيمى التفتازانى : مدخل إلى التصوف الاسلامى ، ص ٩، ١٠.
(٣) القشيرى الرسالة القشرية تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ، ج٢، ص ١٠٤.
(٤) س فصلت آية ٥٣.
(٥) س المجادلة آية ٢٢.

والآيات القرآنية التى تحدثنا عن المعرفة القلبية كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى : " انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم " (١) وقوله تعالى : " ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شئ عليم " (٢)، وقوله تعالى " أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه " (٣).

واذا كان قلب المؤمن يتسع لمعرفة الله تعالى ومعرفة الأمور الغيبية ، قال تعالى : " ولايحيطون بشئ من علمه الا بما شاء " (٤)، وقال تعالى : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " (٥)، فان قلب المؤمن أيضا يتسع للايمان بالأمور الغيبية التى أخبرنا بها الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم وهى الأمور السمعية أو السمعيات. وهذا يقودنا الى الحديث عن النص المنزل كمصدر للمعرفة.

٤ - النص المنزل كمصدر للمعرفة :

سبق الاشارة الى تعدد موضوعات المعرفة واختلافها فمنها ماهو فى عالم الشهادة وهو من اختصاص الحس والعقل ومنها ماهو فى عالم الغيب وهذا يدرك بالقلب والخبر المنزل ولاشك أن الخبر المنزل يتعرض أيضا لأمور كثيرة فى عالم الشهادة منها على سبيل المثال المعاملات وهى الأحكام الفقهية التى وردت بالكتاب والسنة والتى تختص بعلاقة الانسان بأخيه الانسان فى شتى المعاملات الانسانية ومنها أيضا الجانب المتعلق بالاخلاق العملية للانسان وماورد بصددها فى الخبر المنزل من أوامر ونواهى الهية.

---

(١) س الأنفال ، آية ٢.
(٢) س التغابن ، آية ١١.
(٣) س الزمر ، آية ٢٢.
(٤) س البقرة ، آية
(٥) س العنكبوت ، آية ٩٦.

أما المعرفة الخاصة بعالم الغيب والتي حدثنا بها الحق سبحانه وتعالى في النصوص القرآنية هي القضايا السمعية التي لايتيسر للانسان الا عن طريق إخبار منزل من الله ، ومن تلك الأمور " ميثاق الفطرة " الذي أخبرنا الله فيه أن معرفته تعالى مفطورة في النفس الانسانية وذلك في قوله تعالى : " واذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين " (١) ، ففي هذه الآية الكريمة يخبرنا الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم وأنه لا اله الا الله. فعندما خلق الله آدم وخلق من ظهره حواء مسح على ظهر آدم واستخرج نفوس بني آدم وأطلعها على وجوده ووحدانيته منذ بداية الخليقة ، فعرفت الله.

وهذا يعني أن معرفة الله مفطورة في الانسان وعندما يتهيأ البدن المناسب لكل نفس من هذه الأنفس تحل فيه ، غير أن كثافة المادة أو البدن وانغماس الانسان في الاستجابة لمطالبه المادية البدنية التي لاتنتهي يمثل حجابا كثيفا بين نفس الانسان وبين نور هذه المعرفة الفطرية ، ولذلك فقد أرسل الله الرسل يذكروا بني آدم بوجوده تعالى ووحدانيته وأهمية التقرب اليه والتعبد له والطريق الى ذلك التقرب وتلك العبادة.

كما أخبرنا سبحانه عن أسمائه الحسنى لندعوه بها وأنه سبحانه ليس كمثله شيء وأن قدرته ليس لها حدود وان لاشيء يعجزه وانه قديم بلا ابتداء دائم بلا انتهاء وانه خالق الكون بما فيه وانه ينظمه ويسيره الى أن تقوم الساعة وانه سبحانه غير حال في الكون بل متعالى عليه. وانه تعالى متصف بصفات الكمال صفات الذات وصفات الفعل.

---

(١) من الاعراف ، آية ١٧٢.

وأخبرنا الله عن أشراط الساعة وأنواعها وعذاب القبر والصراط والميزان والجنة والنار ، وأخبرنا أن كل شيء يجرى بقضاء الله وقدره وانه تعالى يملك الأرض والسماء وله الأمر والنهى. واذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون ، وانه باعث الأنبيـــاء والرسل وانه خالق الأكوان والملائكة والجان. وأنه أسرى بسيدنا محمد صلى اللـــه عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وعرج به الى السماء السابعة.

تلك الأمور السمعية وغيرهاكثير ماكان لنا أن نعرفها لولا أخبار الله سبحانـــه وتعالى لنا بها وهى أمور يعجز العقل فى كثير من الأحيان عن تصورها ولاسبيل الى تصديقها الا بالقلب المؤمن بالله وكتبه وملائكته ورسله.

ويحدثنا الشيخ محمد متولى الشعراوى عن دور الخبر المنزل فى معرفة اللـــه ومعرفة الأمور الغيبية وان تلك الأمور ليست فى متناول العقل فيقول " ولكن العقـل أيستطيع أن يدرك من هذه القوة أسمها؟ أيستطيع أن يدرك من هذه القوة صفاتهـا ؟ أيستطيع أن يدرك بعقله متطلبات هذه القوة ؟ ومالذى ينتظره حين يخالفها ؟ لاشيء من ذلك من عمل العقل أبدا وانما عمل العقل ينتهى الى تعقل قوة أعلى منه سخرت له ماهو أقوى منه. هذه القوة يكفى منها أن تتعقلها ايها الانسان. أما أن تتصورها على أى كيف هى. فذلك ليس من مهمة العقل. اذن فالقوة تعبر عن نفسها أسما لها وصفات لها ومهمة ترتبط أنت بواسطتها ونهاية تصبو اليها وجزاءا يترتب علـــى امتثالك أو على مخالفتك كل ذلك ليس من عمل العقل ولذلك كان هذا هو الـــرد المنطقى " [1] ، اذن لابد من تبليغ سماوى من الله عن هذه القوة وهى الله سبحانـه وتعالى. هذا التبليغ يقوم به ملك مصطفى من الملائكة الى انسان مصطفى من البشر ولذلك قال الصوفية ان الدليل على الله هو الله وحده [2].

---

(١) كتاب هذا هو الاسلام ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، الطبعة الأولى.

(٢) أبو بكر الكلاباذى: التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦٠م/١٣٨٠هـ ، ص ٥.

وتلك الأمور السمعية التى عرفت عن طريق الخبر المنزل لايقوى العقل على تصورها وانما يكون الايمان بها عن طريق القلب فهناك صلة وثيقة بين الايمان القلبى والتصديق بالخبر المنزل من السماء ، فاذا كان عقل الانسان لايتسع لتصور هذه الأمور الغيبية التى يخبرنا الله بها عن طريق الرسل فان قلب المؤمن يتسع لها أن القلب الطاهر الصافى المستنير بنور الايمان له بصيرة نافذة لاتتوفر للحس ولاللعقل ولذلك قال تعالى : " هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم " (١).

واذا كان الايمان القلبى بالله وبقدرته التى لاحدود لها على الخلق والابداع قضية أولى يسلم بها المؤمن فعليه أن يتقبل مايترتب على هذا الايمان والمعرفة بالله من قضايا أخرى وهى الأمور الغيبية أو السمعيات التى أخبر بها الحق سبحانه وتعالى والتى يتقبلها المؤمن ويصدق بها تصديقا قلبيا دون أن يناقشها أو يشك فى صحتها لاشئ إلا لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بها فى كتابه الكريم .

تلك القضايا السمعية اذا نظر اليها الانسان غير المؤمن نظرة عقلية فان عقله يرفضها ولايتقبلها ولايصدقها فكيف له أن يتقبل - وهو غير مؤمن بوجود الله وبقدرته وبانه يقول للشئ كن فيكون - ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرى به الى بيت المقدس ثم يعرج الى السماء السابعة وهو غير مهيأ لهذا من وجهة نظرهم ؟ فكيف له أن يسافر بين أقطار السماوات والأرض وهو ليس بداخل مركبة فضائية مجهزة لذلك وغير مرتدى لحلة الفضاء اللازمة لكى يتحمل اختلاف الجاذبية واختلاف الضغط الجوى ودرجات الحرارة أو البرودة وغيرها وهو أيضا غير مزود بكمية كافية من الأوكسجين اللازم للتنفس وغير ذلك من الأشياء الضرورية التى لاغنى عنها لمن يرتاد الفضاء الخارجى. ثم كيف له أن يعقل أن من أشراط الساعة أن تشرق الشمس من المغرب بعد

---

(١) س آل عمران ، آية ٦٦.

أن ألف على مر الزمان شروقها من المشرق ؟ وكيف له أن يصدق أن دابه تخرج على الناس وتكلمهم وتعجب انهم لم يستطيعوا أن يعقلوا وجود الله وأن يؤمنوا به رغم ماحولهم من أدلة وشواهد على ذلك ؟

ان الأمور السمعية كثيرة وهى قضايا يسلم المؤمن بصحتها كما سبق القول بناء على ايمانه السابق بقدرة الله على الخلق والابداع وأنه تعالى لايعجزه شئ ولاتقاس قدرته بقدرة الانسان الذى هو دائما فى حاجة الى الأسباب لنقصه وعجزه. أما غير المؤمن فانه يعتبر السمعيات أمور خارجة عن دائرة العقل ومستحيلة الحدوث وإذا كان على الانسان أن يسلم بها فلابد أن يلغى عقله أولا ثم يصدق بها ثانيا. ومن هنا أدعى من لايعرف الله أن الايمان به تعالى والايمان بكتبه وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره يتطلب الغاء العقل فالمؤمن فى نظرهم انسان واهم يعيش فى وهم كبير.

ان الله سبحانه وتعالى لم يأمرنا بالغاء العقل ولم يهب العقل للانسان وميزه به على سائر الموجودات الأخرى لكى يلغى وجوده ولم يخلق الله العقل للانسان عبثا وقد سبق أن أوضحنا فى حديثنا عن المعرفة العقلية كيف عول الله سبحانه وتعالى على قدرة الانسان العقلية فى النظر والتأمل ، وقد اتضح لنا بالاستعانة بالآيات القرآنية ان الله تعالى يأمرنا باعمال العقل للاستدلال على وجوده غير أننا ـ وهذا هو المهم ـ كنا نؤمن بقدرة العقل على النظر والتأمل والتصور والاستدلال والبرهنة والاستنتاج علينا ، الانغفل أن هذا العقل الانسانى مهما بلغت قدراته وامكانياته فهى محدودة كما سبق وتبينا ذلك. وعلينا أن ندرك أيضا أنه ليس كل مايفوق قدرات الحس والعقل الادراكية يعد من المستحيلات هذه حقيقة يجب ألا نغفلها . وهذه هى القضية التى اذا سلم الجميع بها وأدركوا صحتها انتهت مشكلة المكذبين بوجود الله أصحاب مذهب الألحاد Atheism وهو مذهب من لايؤمنون بالروحانيات Pneumatology

وهذا يقودنا الى أن يكون لنا وقفة مع هؤلاء المكذبين نحدثهم فيها بمنطق العقل ولن أتبع الطريقة التقليدية فى تقديم الأدلة والبراهين العقلية على وجود الله فهذه تزخر بها كتب الفلاسفة والمفكرين من قدامى ومحدثين وانما أقول لهم تعالوا بنا نتساءل ماجدوى ألا يعرف الانسان ربه ويكفر بوجوده تعالى، هل لأنه يريد أن يتبع المنهج الحسى فى أبحاثه ودراساته العلمية أو يتبع منهج الحسى والعقلى معا ليصل الى مزيد من التقدم العلمى وأن ايمانه بالله سيقف حجر عثرة فى طريقه ؟ لا فان الايمان لايتناقى مع استخدام المنهج العلمى ولايحرم العلم ، فعلى كل انسان أن يعمل عقله وأجهزته ليصل الى أرقى درجات التقدم العلمي ولاحرج عليه فى ذلك فالله لم يحرم العلم ولم ينه عن البحث فى شتى فروع المعرفة ، وانما على العكس رفع الله من شأن العلم والعلماء فى آيات عديدة فى كتابه الكريم فى مثل قوله تعالى: " هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون " (١). فالله لايسوى بين العالم وغير العالم انما جعل للعلماء منزلة خاصة ويكفى العلماء شرفا أن الله جعل شهادتهم تأتى بعد شهادة الملائكة فى قوله تعالى : " شهد الله أن لااله الا هو والملائكة وأولوا العلم " (٢). بل أن الله سبحانه وتعالى يرفع درجات الذين أمنوا والذين أتوا العلم قال تعالى: " يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات " (٣) وذلك لأن العلماء كلما أمعنوا النظر فى علومهم العملية والنظرية وكلما وقفوا على دقائق الأمور فى موضوعات أبحاثهم أيقنوا أنه لايمكن أن تكون الأشياء بهذه الدقة وهذا النظام المقنن وبتلك المقادير والنسب المحكمة بمحض الصدفة ، وانما لابد أن تكون بتدبير محكم وابداع خارق فى الخلق والتنظيم ولذلك قال تعالى : " وتلك الأمثال نضربها للناس ولايعقلها الا العالمون " (٤) ، وقال تعالى : " ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل

---

(١) س الزمر ، آية ٩.
(٢) س آل عمران ، أية ١٨.
(٣) س المجادلة ، أية ١١.
(٤) س العنكبوت ، آية ٤٣.

اليك من ربك هو الحق " [١] وان هؤلاء العلماء أكثر الناس خشية لله لما عرفوا من الحق ، قال تعالى : " انما يخشى الله من عباده العلماء " [٢] وأول آية نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يحدثه الله فيها عن العلم الذى علمه للانسان فى قوله تعالى : " اقرأ باسم ربك الذى خلق - خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم " [٣].

اذن العلم يجب أن يكون دافعا لتثبيت الايمان وليس حجة للتشكيك فى وجود الله ويكفى نظرة مدققة فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن للوقوف على الآيات القرآنية العديدة التى ورد فيها لفظ علم وعلماء لنستدل من ذلك على موقف الاسلام من العلم.

واذا كان الايمان لايقف فى طريق التقدم العلمى فى مختلف العلوم النافعة وهى غاية العقل الانسانى والبحث العلمى فما المانع من آن يكون الانسان عالما ومؤمنا فى ذات الوقت خاصة وان للايمان آثار نفسية واجتماعية واخلاقية عظمية لاينكرها المؤمن وغير المؤمن على السواء..

وعلى المؤمنين بالله أن يرتقوا سلم التقدم الحضارى فكلما زاد التقدم العلمى كلما انكشف امام الحس والعقل أمور وأسرار كانت مجهولة غير متصورة الوجود عقليا وغير مدركة حسيا وهذه بعينها فيها دلالة قاطعة على أن هناك من الموجودات مالايدركه الحس ولايتصوره العقل. والعلم يكشف لنا عن هذه الموجودات شيئا فشيئا وكلما تقدم العلم كلما تيقنا من آن أحكامنا المتسرعة بأن كل موجود محسوس خطأ يجب أن نعيد النظر فيه وقد قال تعالى : " ويخلق مالاتعلمون " [٤] فعملية الخلق

---

(١) س سبأ ، آية ٦.
(٢) س فاطر ، آية ٢٨.
(٣) س العلق، آية ١ الى ٥.
(٤) س النحل ، آية ٨.

مستمرة لاتتوقف وسيخلق الحق سبحانه وتعالى فى المستقبل موجودات لانعرفها الآن وقد لاتتصور وجودها ولاأدل على ذلك من أن علم الهندسة الوراثية فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا بلغ من التقدم مبلغا جعله قادرا على أن يقدم لنا مخلوقات تحمل صفات الانسان والحيوان وانتاج سلالات جديدة غير معروفة لنا من خلال عمليات التهجين وقد تقدم هذا العلم فى السنوات الأخيرة وسيأتينا بما كان العقل البشرى لايتصور وجوده وعلينا أن نستبصر من هذه الأشياء ونعتبر وندرك أن العقل قد لايتصور أشياء والعلم يثبت لنا كل يوم من العجائب مالم يكن فى قدرتنا تصورها ، قال تعالى " لقد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها " (١).

ويقول الغزالى فى عدم تناقض العلوم العقلية مع العلوم الشرعية " وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة نعوذ بالله منه بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض فى الدين فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين. وانما ذلك لأن عجزه فى نفسه خيل اليه نقضا وهميات " (٢)، وقد ضرب الغزالى مثلا لمن لايستطيع أن يدرك أن الايمان بالله والاشتغال بالعلوم الدينية لاتتعارض مع البحث العلمى والاشتغال بالعلوم العقلية فيقول " وانما مثله (أى الذى يرى تناقضا فى الجمع بين العلم والايمان) مثال الأعمى الذى دخل دار قوم فتعثر فيها بأوانى الدار فقال لهم ، مابال هذه الأوانى تركت على الطريق لم ترد الى مواضعها. فقالوا له تلك الأوانى فى مواضعها وانما أنت لست تهتدى الى الطريق لعماك. فالعجب منك أنك لاتحيل عثرتك على عماك ، وانما تحيلها الى تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدينية الى العلوم العقلية " (٣).

---

(١) من الأنعام ، آية ١٠٤.

(٢) ارجع الى أحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

وقد جاء على لسان الدكتور رشدى فكار ان الحضارة الاسلامية العربية هى أول مايلفت نظر الغربى الرافض الذى استسلم للأباطيل والأساطير فاكتشف وهو فى ذهول ان الانسان يمكنه أن يكون مؤمنا ويفكر. وجد الأوربيون بشرا يؤمنون ويفكرون فى العمران وشتى العلوم ويركز فكرهم على الوحى ، وفى نفس الوقت لايصادر العقل وهنا بدأت صحوتهم العقلية " [1].

والحقيقة ان الدين الاسلامى لم يحرض دين مثله على طلب العلم واستخدامه لسعادة الانسان وعدم إعمال الانسان فكرة يعد ،معجزة من المعاجز لأن الله فى اكثر من موضع يحث على إعمال العقل ، واذا كان الدين هو الاجابة على لماذا ؟ فان العلم هو الاجابة على كيف ؟ وكل منهما مطلوب للانسان والاسلام دين المادة والروح معا والدين هو الرصيد الايمانى الذى نستطيع من خلاله تحمل أعباء الحياة وهمومها.

فما أجمل أن يشعر الانسان بوجود قوة عظيمة يمكن أن يركن اليها وقت الحاجة وقادرة على مساعدته فى وقت الشدة ولاتعوزها الاسباب فى دفع الخطر عنه وفى حمايته واعادة السكينة والصبر الى نفسه وقلبه اذا ألم به مكيرة أو نزلت به نازلة ان الايمان بالله ومعرفته له عمق نفسى بعيد ولذلك وصف الله نفس المؤمن بانها مطمئنة فى قوله تعالى : " ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى " [2] ، هذا الرضا وهذه الطمأنينة يفتقدها الانسان الكافر ولذلك فان المجتمعات التى يستشرى فيها الالحاد تكثر فيها الأمراض النفسية والعصبية ويشعر أهلها بالقلق والاكتئاب وينتهى بهم الأمر فى بعض الأحيان الى التخلص من حياتهم بالانتحار ، وهذا يبين لنا أهمية معرفة الله بشتى وسائل المعرفة وانه علينا ألا نأخذ الأمور بظواهرها وانما نبحث فيما وراء الظاهر بعد أن نستدل

---

(١) جاء هذا فى جريدة الأهرام العدد ٣٦٦٧٤ الصادر بتاريخ ١٩٨٧/٥/٧م.
(٢) س الفجر ، آية ٢٩.

من الظاهر أيضا على وجود الله وعلينا أن نواصل السير فى الطريق الى الله دون توقف وأن نتبع هدى الله وأن هذا سيكون دافعا لنا للحاق بركب الحضارة والتقدم العلمى ويقول الشيخ محمد متولى الشعراوى فى هذا الصدد " فمن أراد أن تنهض أمته الاسلامية فعليه أولا أن يثبت الاسلام فى نفوس المسلمين وأن يجعلهم يزهون بدينهم وايمانهم ... فاذا ماأرادوا أن تعود لهم عزتهم وسيادتهم وكرامتهم وأن يقودوا العالم من جديد فعليهم أن يتغيروا من أنفسهم " ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابانفسهم " (١) ولنعلم جميعا أن الله لايتغير من أجلنا ولكن يجب أن نتغير من أجل الله " (٢).

نخلص من هذا الى النتائج التالية :

١ - ان الله خلق للانسان مصادر للمعرفة هى الحس والعقل والقلب الى جانب الخبر المنزل من السماء.

٢ - ان الحس عاجز عن أن يحيط علما بالله والعقل قادر على تعقل وجوده تعالى والاستدلال على ذلك من وجود الخلق على وجود الخالق ، أما قلب المؤمن فقد وسع الله تعالى بينما عجزت السماوات والأرض عن ذلك.

٣ - ان المعرفة بالله عن طريق الاستدلال العقلى لاترقى الى الايمان القلبى فالأخير أثبت وأيقن وأعمق.

٤ - ان معرفة الله معرفة ذوقية قلبية عن طريق نور يقذفه الله فى قلب العابد الواصل الى الحضرة الالهية دون واسطة من حس أو عقل ولا تكون الا للقلوب الصافية النقية التى تطهرت بالرياضات الروحية والعبادات العملية.

٥ - ان الايمان بالله يوجب علينا أن نسلم بالسمعيات ولاننكرها.

---

(١) س الرعد ، آية ١١.

(٢) محمد متولى الشعراوى : هذا هو الاسلام ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ ، ص ١١٢.

٦ ـ ان الايمان بالله لايتنافى مع النظر العقلى والتأمل والتفكر.

٧ ـ ان الايمان بالله لايعوق البحث العلمى بل ان الله يمجد العلم والعلماء ويضعهم فى أرفع المنازل.

٨ ـ انه ليس كل مالانستطيع ادراكه عن طريق الحس أو تصوره عن طريق العقل يكون غير موجود بالفعل ، فهناك الكثير من الأشياء لاندركها بالحس ولانتصورها عقلا وهى موجودة بالفعل والعلم يثبت لنا ذلك كل يوم حينما يكشف بالأجهزة الحديثة أشياء لم نكن نعلم بوجودها ولاندركها حسيا ولانتصورها عقليا.

٩ ـ ان معرفة الله فطرية فى النفس الانسانية.

١٠ـ ان الايمان بالله تعالى والعمل الجاد فى طاعته والالتزام بما أمرنا به من طلب العلم والمعرفة لخدمة الانسان هو طريق أمتنا الى التقدم والنهوض.

١١ـ ان المعرفة بالله لاتتأتى الا عن طريق الايمان القلبى ويمكن القول أن المعرفة بالله هى الايمان به تعالى.